

(الحلقة الأولى)

"البلاد" تستعرض كتاب "غاندي... وقضايا العرب والمسلمين" للكاتب عبدالنبي الشعلة



عبدالنبي الشعلة

هندوسي يجمع التناقضات ويؤسس دولة علمانية ديمقراطية



غاندي في صباه

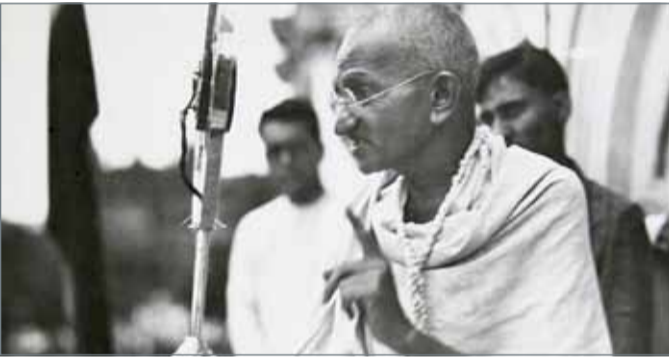
بالكثير من التناقضات. يتناول الكاتب الباحث عبدالنبي الشعلة بكتاب "غاندي... وقضايا العرب والمسلمين" كيف أثار شخصية غاندي الكثير من الجدل والتساؤلات إلى درجة التشكيك فيما إذا كانت مظاهر الضعف والهزال والتشقق والانكسار التي كان يبدو فيها مجرد تكتيك وجزء من إستراتيجية مبيتة. وتنتشر "البلاد" على مدار حلقات أبرز ما يتضمنه كتاب "غاندي... وقضايا العرب والمسلمين".

كان غاندي في صباه صبياً مدلاً خجولاً، لا يخرج من بيته ليلاً؛ خوفاً من الأرواح والأشباح والعرافيت والتعابين واللصوص، فتحوّل لاحقاً إلى رمز للقوة والشجاعة، وإنسان صلب صامد لا يخاف الموت ولا يهاب البطش، تحققت لبلاده على يديه الحرية والاستقلال والكرامة التي انتزعها من براثن واحدة من أعتى قوى العالم وقتها.

كان غاندي ثائراً ومصلحاً وفيلسوفاً ومفكراً وسياسياً وقائداً وقديساً، إنساناً يجمع كل هذه الصفات والخصائص في آن واحد، شخصية مميزة ومتميزة، مثقلة

لإدماجهم بالمجتمع وعدم الانزلاق باختلافات مذهبية قائمة

مساعٍ للقضاء على نظام التمييز ضد المنبوذين



كانت تفصل وتفرق بين مكونات الشعب الهندي فواصل واختلافات وانقسامات وانشقاقات عرقية ودينية وطبقية وثقافية واجتماعية وإقليمية واقتصادية وغيرها؛ بنية اجتماعية متصدعة، فوارق طبقية واقتصادية شاسعة، مئات اللغات واللهجات والعادات والتقاليد، مشارب وانتماءات متباينة، وساحة واسعة مكتظة بمختلف المعتقدات والمذاهب والديانات، بما في ذلك كل الأديان المعروفة على وجه الأرض كالزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام بتفرعاتها المذهبية كافة. بالإضافة طبعا إلى المكون الديني الأكبر، وهو الهندوسية بمدارسها وطبقاتها الاجتماعية والمهنية المتعددة وصيغها المختلفة كالجنينية على سبيل المثال لا الحصر، فضلا عن البوذية

والسيخية، وهلم جرا. وجد غاندي أن الهندوس منشرطون ومنقسمون إلى طبقات ومدارس مختلفة، والمسلمين متفرقون بين طوائف ومذاهب واتجاهات متباينة. بالنسبة للهندوس، فقد سعى غاندي إلى إزالة الفوارق الطبقية والقضاء على "نظام التمييز ضد المنبوذين" وإدماجهم في المجتمع.

أرسى نظرياته على قاعدة مناهضة الاستبداد

نفور فطري حاد وحساسية مفرطة تجاه الظلم والتفرقة

والسياسية التي ساهمت في بلورة مواقفه تجاه مختلف القضايا. ومن هذا المنطلق، فقد أرسى غاندي نظرياته السياسية على قاعدة مناهضة الظلم والتفرقة والاستبداد، وعلى مبدأ التضحية من أجل تحقيق الحرية والعدالة والمساواة. إن التزام غاندي بهذه الفضائل والمبادئ قاده إلى الانخراط في الحراك السياسي، وليس العكس.

لن يستقيم المسعى، ولن نستطيع أن نستوعب آراء غاندي ونفهم مواقفه تجاه جميع القضايا، بما في ذلك مواقفه تجاه قضايا المسلمين وقضايا الأمة العربية، من دون رصد وتتبع، ولو بقليل من الجهد، بعض المنابع الفكرية التي غذت حسه السياسي، وأن نتوقف عند بعض المحطات ونتصفح بإيجاز شديد جوانب من أفكاره ونظرياته

لأنهم على استعداد للتضحية بالفرد في سبيل تحقيق مكاسب أيديولوجية

لينين وستالين وماوتسي تونغ على نقض غاندي تماماً

الوسيلة". ستالين ولينين وماوتسي تونغ وأقرانهم يقبوعون الآن وراء أسوار تاريخهم، لكن غاندي تحول إلى رمز ساطع وأصبح نموذجاً وقُدوة لقادة عظام من الذين كتبوا تاريخ الإنسانية، الذين آمنوا مثله بقيم الحرية والعدالة والمساواة، وحذوا حذوه بالتمسك بالوسائل السلمية ونبذ العنف في كفاحهم المستميت لئلا تغلغل عن رقاب شعوبهم وتحطيم منظومة الظلم والاستعباد والتمييز التي كانت تعانيه مجتمعاتهم، وكان من أبرزهم مارتن لوتر كينغ، الذي قاد حركة الحقوق المدنية في أمريكا، ونلسون مانديلا، الذي قاد كفاح الأفارقة السود ضد نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

اعتبر غاندي المواطن غاية العملية السياسية وليس الدولة، وجعل الفرد محور اهتمامه، وهو بذلك يختلف عن الكثير من معاصريه من القادة والمفكرين السياسيين؛ أمثال لينين وستالين وماوتسي تونغ، الذين كانوا على نقيضه تماماً، وكانوا على استعداد للتضحية بالفرد في سبيل تمرير مهام وطنية أو تحقيق مكاسب سياسية أو أيديولوجية.

غاندي كان يحمل على عاتقه رسالة إنسانية منسوجة بوشائج روحية وأخلاقية، ولم يكن مستعداً للمتاجرة بأي إنسان أو المقايضة بكرامته، ولم يكن يقبل بخوض معارك تحركها أهداف أيديولوجية، ولم يكن يهتم بالإحصاءات، فكل القضايا بالنسبة إليه محكومة بالقيم الإنسانية، وسمو الغاية يقتضي سمو الوسيلة، على خلاف قاعدة "الغاية تبرر

الديمقراطية الوسيلة الأنجع لاستحداث نظام اجتماعي واقتصادي منصف

إدراك حساسية وخطورة الدمج أو الربط بين السياسة والدين

وتشتيت جهودها وبعثرة عطائها ومساهماتها، إلا أنه كان في الوقت نفسه من بين أوائل المفكرين في العصر الحديث الذي رفض القطيعة والفصل بين الدين والسياسة. وفي هذا الصدد تحضري كلمات معبرة تتسم مع هذا الفهم قائلها، بعد عقود من وفاة غاندي، المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي، في إحدى محاضراته عندما قال "أتمنى أن يصل الدين إلى أهل السياسة، وألا يصل أهل الدين إلى السياسة".

وتحدى غاندي النظريات السياسية التي تدعو إلى "علمنة السياسة"، وتلك التي تدعو إلى "تسييس الدين" وأدرك منذ البداية حساسية وخطورة الدمج أو الربط بين السياسة والدين، خصوصاً في المجتمعات متعددة الأديان والمعتقدات والدينية كالمهند، وما قد يؤدي إليه ذلك الربط من أثر سلبي على الحريات والأقليات والحقوق الفردية والجماعية، إلى جانب ترسيخ انشقاق قوى المجتمع وتقوقع وتخندق مكوناته الدينية

رسم غاندي خارطة طريق فكرية وإستراتيجية، أو خطة عمل واضحة ترمي إلى تحقيق الديمقراطية في الهند انطلاقاً من الأسفل إلى الأعلى، أو من قاعدة الهرم الاجتماعي إلى قمته، واعتبر الديمقراطية الوسيلة الأنجع لاستحداث نظام اجتماعي واقتصادي منصف يساهم في دفع عملية التحول والتنمية وتعزيزها، وكان يؤمن أيضاً بأن النظام الإداري المركزي لا يوفر البيئة الصالحة والملائمة لنجاح التجربة الديمقراطية ورسوخها.

استنباط صيغة تجمع بين السياسة والدين والأخلاق في بوتقة واحدة

"تجنب العنف" مصطلح منتزع من بطن الفلسفة الدينية الهندوسية

ونجح غاندي أيضاً في تطويع الكثير من المصطلحات الدينية وتحولها إلى مفردات سياسية مبتكرة، من أبرزها مصطلح "أهمسا" الذي انتزعه من بطن الفلسفة الدينية الهندوسية، والذي يعني "تجنب العنف"، وحول هذا المصطلح إلى أداة محرّكة ومحفّزة للحس الوطني، نقلها براءة إلى ساحة السياسة، وأقمها في صلب الممارسات الديمقراطية والحراك السياسي الوطني الذي يهدف إلى تحقيق دولة علمانية على أسس ديمقراطية.

وبينها، وكان عليه أن يحرص على أن يتم ذلك التواصل بعيداً عن القنوات الدينية وعبر جسور روحية وخيوط أخلاقية لا خلاف حولها، مستلّة ومُستلهمة من روح وقيم مختلف الأديان، فاستنبط غاندي صيغة تجمع بين السياسة والدين والأخلاق في بوتقة واحدة، وأضفى الطابع الأخلاقي على المبادئ السياسية وطعمها بقيم روحية، واستحضر المعاني السامية للأديان وحققها في شرايين العمل السياسي، بدلا من القفز عليها أو تركها لاستهلاك مبتغيات الحياة الآخرة.

لقد أدرك غاندي أن مكونات المجتمع المتعددة في الهند أصبحت متمترسة في حصونها الدينية المختلفة، وأصبحت الهويات الدينية المتنوعة لمختلف الشرائح هي الطاغية، على حساب وفي غياب هوية وطنية راسخة جامعة واضحة المعالم.

هذا المشهد جعل من إلقاء دور الدين في الحياة العامة مهمة صعبة، إن لم تكن مستحيلة، وكان ذلك هو الإشكال والتحدّي الذي واجهه، فالأهداف التي يسعى إلى تحقيقها تتطلب منه اقتحام تلك المعاقل والتواصل معها

أصبح بؤرة ارتكاز فكره السياسي ومنطلق حراكه الوطني

تحكم في مصطلح "اللاعنف" وحواره ثم طوره إلى نظرية



أثبت غاندي براعته الفكرية وحكته القيادية عندما تحكّم في مصطلح "اللاعنف" وحوّره ثم طوره إلى نظرية وفلسفة أصبحت بؤرة ارتكاز فكره السياسي ومنطلق حراكه الوطني، بعد أن أردفها برامح وخطط تنفيذية، وجعل الإضرابات والمسيرات السلمية وعدم التعاون والعصيان المدني أدواتها الرئيسية.

وقد راهن غاندي على الوسائل السلمية وأسلوب اللاعنف عندما كان العالم من حوله يتحدث بلغة أخرى، وهي لغة العنف والقتل والدم والدمار، فقد تزامن طرح غاندي السلمي مع فترة الحروب الكونية والاستعمار النازية

مكانة له، ولا مجال لقبوله، مهما كانت متانة وصلابة المبررات.

والفاشية. بالنسبة إليه، فإن العنف هو أم الكبائر، لا مكان ولا



"أنا لا أعتد على الطرح الأكاديمي والنظري، إن العمل والإنجاز هما معياري".
غاندي

جلد على عظم يسير

تمكن الشاعر العراقي صالح بن عبدالكريم الجعفري النجفي (1907 - 1979)، من وصف حالة غاندي الجسدية في أدق وصف عندما قال:

جلد على عظم يسير فيقطع الشَّعب الطوال
لا يرتدي غير النسيج نسيج كفيه الهزال
شبح ضئيل كاد لولا الصوت أن يمسي خيال
ملك القلوب وإنها جيش بعيد الانخزال



الشاعر صالح الجعفري